جامعة محمد خيضر ـ بسكرة ـ

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

شعبة التاريخ

المحور الثاني : النقد الظاهري

المحاضرة الأولى

(الكتابة التاريخية والنقد)

مقياس منهجية وتقنية البحث التاريخي (02)

المستوى: ثانية ليسانس

السداسي الرابع

المحاضرة الأولى: الكتابة التاريخية والنقد

1- الأصول التاريخية:

"اذا ضاعت الأصول ضاع معها التاريخ" التاريخ لا يقوم إلا على الآثار التي خلفها عقل ويد الإنسان، وإذا أتلفت هذه الآثار بعامل الزمن أو الطبيعة أو الإنسان فقدها التاريخ، وبالتالي يجهل تاريخ عصرها ورجالها، أما إذا حفظت فقد حفظ التاريخ فيها، لهذا يلتزم المؤرخون بالبحث والتنقيب عن شتى مخلفات الانسان والتي يسميها الكثير أصول.

تختلف أنواع هذه الأصول فمثلا نجد أن الرسائل الواردة إلى مجلس محمد علي باشا (1769- 1849) والصادرة عنه هي أصول لتأريخ حقبة من تاريخ العرب، ومجموعة الأسلحة التي ترجع إلى عهده والتي لا تزال محفوظة في وزارة الحربية في مصر وفي سراية عبدين الملكية هي أصول، كذلك الجامع الشهير القائم على هضبة المقطم، كما أن عظامه المحفوظة في مثواه داخل الجامع العظيم وبقايا ألبسته أدواته الشخصية هي كذلك، من خلالها يمكن التأريخ لفترة محمد علي باشا (رستم، 2015، ص 54).

كما أن النقوش المسجلة على جدران الكهوف في الطاسيلي أو الأهرامات، وكل المخلفات من أواني فخارية أو قبور أو أثاث جنائزية هي أصول تعبر عن حقبة معينة، وتشير إلى منظومة اجتماعية عقائدية لدى مجموعات إنسانية معينة، كما تصنف المسكوكات والنقود كمصادر مادية، تقدم لنا معلومات كثيرة على المذهب، الديانة، اسم الدولة، اقتصادها، ونظام حكمها (مدني، 2018، ص 151).

كما تعتبر بعض الكتابات أصول فكتاب الشيخ عبد الرحمان الجبرتي الذي عاش في القاهرة من الاصول، وكذلك كتاب الدكتور كلوت بيك (1793- 1868) الذي استخدم في حكومة علي باشا والذي أسس كلية الطب في القصر العيني من الأصول، وأيضا كتاب الدكتور ميخائيل مشاقة الدمشقي (1800- 1888) الذي درس الطب في القصر العيني (رستم، 2015، ص 54)، وتعتبر كذلك أصول الروايات الشفوية والقصص ومثال ذلك اعتماد الاغريق على اشعار هوميروس التي مجدت الأبطال والمعارك التي خاضوها في القرن التاسع قبل الميلاد (مدني، 2018، ص 152).

2- الكتابة التاريخية لدى المسلمين:

عُد الخبر من علوم العرب قبل الإسلام مثل القصص والأيام والشعر، فعرف العرب التاريخ قبل الرسالة المحمدية فألفوا فيه وتداولوا أخباره، ولم يكن للخبر أي مظهر كتابي إلا في النقوش، وارتبط أساسا بالرواية الشفوية وبحفظها في ذاكرتهم (عبد الحميد، 2008، ص 37).

انشغل المسلون في البداية بالفتوحات والغزوات، ولما استقروا وتزامن ذلك مع إقامة مراكز علمية في الأقطار الإسلامية اتجهوا إلى ما يسمى بإثبات الأخبار وتسجيل الأحداث فانكبوا على جمع الأحاديث النبوية وتفسير القرآن الكريم، إعتنوا بحفظ القرآن والأحاديث.

بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بدأ جمع القرآن الكريم في فترة خلافة أبي بكر الصديق واكتملت عملية الجمع في عهد عثمان ابن عفان، كما ارتبط علم التاريخ عند المسلمين برواية الحديث وتفسير القرآن فلما عكف المسلمون على الجمع والتفسير ودراسة الأحداث النبوية احتاجوا إلى تحقيق المناسبات التي نزلت فيها الآيات والمواقف

التي وردت فيها الأحاديث لذا جمعوا أخبار السيرة وأخبار الغزوات، واهتموا بالإسناد المتسلسل، ولما وجدوا تناقضات فرقوا بين الأحاديث الصحيحة والأحاديث المدسوسة (الحويري، ص 110، ص 112).

أقدم الكتب التي تجمع بين الحديث والتاريخ هي كتب المغازي والسير ولقد انتشرت في القرن الثاني للهجرة، اعتمدت على الأحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم والتي يتحرى في جمعها الصحة والدقة وبالتالي رفع مستوى الكتابة التاريخية ومن أشهر مؤرخي السيرة شرحبيل بن سعد (132هـ)، وعروة بن الزبير (94 هـ) (الحويري، ص 113، ص 115)، ومن أشهر مؤرخي المغازي أبان بن عثمان بن عفان (105 هـ)، وهب بن منبه (110 هـ)، عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (120 هـ)، محمد بن شهاب الزهري (124 هـ)، موسى بن عقبة (141 هـ)، الواقدي (207 هـ)، محمد بن سعد (230 هـ) (السلمان، ص 2010، ص ص 43- 48).

كما نشأت قصص الأيام في المجالس القبلية المسائية وتتمثل في الروايات الشفوية والتي هي ملك مشترك لأبناء القبيلة، وبقيت حتى القرن الثاني للهجرة، فجمعت وصنفت واهتم بها اللغويون النسابون والمؤرخون مثل أبي عبيدة (210 هـ)، المدائني (215 هـ)، ابن قتيبة (276 هـ)، ابن عبد ربه (328 هـ)، والأصفهاني (356 هـ) (عبد الحميد، 2008، ص 37).

إلى جانب ذلك ظهرت طائفة الإخباريين والذين اهتموا بالأخبار القديمة والقصص وهذا النوع من الأخبار فيه مزيج من الواقع والخيال والأوهام، وروايات الإخباريين لا شك أنها النواة الأولى للرسائل التاريخية التي أخذت تظهر وتؤرخ لأحداث بزغت منذ العهد الإسلامي كحوادث الردة والخلاف بين الأمويين والعلويين... وكانت هذه الرسائل هي النواة التي اعتمدها المؤرخون العرب مثلما نجده في كتب الطبري (الحويري، 2001، ص 114).

نشأت كتابة التاريخ لدى العرب مستقلة غير متأثرة بما كتبه أعلام المؤرخين اليونان أو الرومان أو الفرس، وكانت في كل مرة تعرف تطور فنجد أن الطبري (310 هـ) اعتمد في نقد الروايات على الإسناد وكانت مصادره معتمدة على مؤرخين لهم منزلة موثوق فيها، وعبر في كتاباته على فكرتين وهما وحدة الرسالات في المنهج وأهمية خبرات الأمة واتصالها في الزمن من جهة أخرى أما فيما يخص أسلوبه فقد ظهرت فيه ملامح ثقافته ودراسته وفقهه في التدوين والذي جاء مطابقا لمنهج أهل الحديث، فحرص على تمحيص الأخبار، وصحة النقل عنده تكفل صحة الخبر، وكان إذا انتقد عني بنقد السند أكثر من عنايته بالرواية، استخدم في كتاباته مصادر كثيرة جدا وهي خدمة كبرى قدمها للكتابة التاريخية (السلمان، 2010، ص 53).

رفض الطبري أن يكتب التاريخ بناءا على طلب الخلفاء والأمراء، وكان والده ميسورا، صرف عليه طوال إقامته في الخارج حتى لا يخضع لابتزاز الحكام أو الطموح للمنصب، خط الطبري منهجا لمن جاء بعده من المؤرخين أمثال المسعودي، ابن مسكويه، ابن الجوزي، ابن الأثير، أبي الفداء.... عرض كتابه تاريخ الرسل والملوك دون نقد للأحداث خشية ترجيح فكرة ضد فكرة (حلاق، د.ت، ص ص 461- 462).

ربط ابن خلدون (808 هـ) التاريخ بعلم الاجتماع والجغرافيا والسياسة والاقتصاد والصناعة والزراعة والطب والفقه والنحو واللغة والقرآن، أرخ للعلوم والفنون، حرص في مؤلفه "العبر ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" على دراسة القواعد والأسس التاريخية التي ينبغي على المؤرخ أن يتقيد بها، قسم دراسته على أساس الموضوعات وليس على أساس السنين، ركز على ضرورة الاستفادة من التاريخ أو ما

نسميه بنفعية التاريخ، وذكر ان هذا العلم يحتاج إلى علوم أخرى مساعدة للنظر والتثبت والتحقق والتعليل، وأنه يقوم على مقارنة الحاضر بالماضي وأن هدفه ليس النقل فقط وإنما لا بد من التحقيق والمقارنة والتمعن والتحكيم (حلاق، د.ت، ص 465، ص 467).

نقد ابن خلدون المؤرخين الذي أوردوا أحداث وأخبار تتناقض مع قانون المطابقة وتخالف الواقع والموضوعية، كما نقد مؤرخين آخرين لأنهم أخطئوا في كتاباتهم ، ولقد حدد قواعد التاريخ للمؤرخين من معرفة أحكام السياسة وطبائع الموجودات الجغرافية والاجتماعية، وأكد على ضرورة امتلاك المؤرخ القدرة على المقارنة بين الماضي والحاضر ومعرفة أسباب نشوء الدول ومظاهرها، وقد رأى أن يكون المؤرخ في حد ذاته عالما اجتماعيا (حلاق، د.ت، ص 469). بتحديد ابن خلدون لقواعد البحث التاريخي ارتقى به إلى مستوى العلوم (الوافي، 2008، ص 87).

3- الكتابة التاريخية في أوروبا

تعد الأساطير الأصول الأولى لكتابة التاريخ في أوروبا، ومثال ذلك الإلياذة والأوديسا لهوميروس والتي تعد من أهم مصادر المعلومات عن تاريخ اليونان خصوصا ملحمة طروادة، والتي تخلط بين الأحداث الواقعية والخيال، ولقد آمن اليونان بهذه الأساطير واعتبروها أحداث تاريخية حقيقية، كما يعتبر كتاب السيروبيديا والمخلدون لكازينيفون وكتاب السير المتوازية لبلوتارك (46 م- 120م) تآليف عن شخصيات هامة في التاريخ، اهتمت الكتابات التاريخية في اوروبا في العصور القديمة بتمجيد رجال الحكم والسياسة والقادة العسكريون ورجال الدين ونظروا إليهم على أنهم صانعوا التاريخ فسادت نظرية الرجل العظيم في الكتابات التاريخية لدى الاغريق والرومان (طحطح، 2012، ص ص 65- 66).

اتخذ تاريخ الأبطال صفة القداسة، ومزج المؤلف الأسطورة بقدرات وإمكانات الأفراد، ففي روما انحصر التاريخ في أحداث روما فقط وايطاليا وكان لا يعرف شيئا عن ما وراء روما، وظل كاتب التاريخ عازفا على الاقتراب من واقع الحياة الاجتماعية وطبقات المجتمع، ويعد القائد الروماني يوليوس قيصر (100-44 ق.م)،مؤلف كتابان الحروب الاهلية، وحروب بلاد الغال، من أوائل المؤرخين، كما ظهر الشاعر فيرجيل (70 ق.م)، تحدث عن تاريخ روما وسيادة الذهنية الرومانية آنذاك (عبد الحميد، 2008، ص 23).

سادت في العصور الوسطى الهيجيوغرافيات (سير القديسين) ، نذكر منها الكتاب الكنسي لأوزبيوس القيصر (263- 310 م) سرد فيه حياة رجال الكنيسة وأعمالهم، وكانت هذه الكتابات خاضعة لرجال الدين وهيمنة الكنيسة تمدح وتمجد وتخلد الرهبان والزهاد والقديسين (طحطح، 2012، ص ص 67-68)

نقصت نوعا ما التأثيرات الدينية في كتابة التاريخ في أوروبا في الفترة المعاصرة لاسيما بعد قيام الثورة الفرنسية، ويعتبر مونتيسيكيو أول من حرر التاريخ من التطورات الميتافيزيقية ودافع عن وجود عوامل وقوانين تؤثر في تواريخ الأمم، كما اهتم فولتير في نفس الفترة بدراسة التاريخ كحقل جديد يتخطى فيه سيرة الحكام والملوك والوزراء، لينفتح على مجال السكان والأخلاق والاقتصاد والتجارة والصناعة لدى الأمم والشعوب، واعتبر فولتير وغيزو وشاتوبريان ونظرتهم للتاريخ في النصف الأول من القرن التاسع عشر الآباء الأوائل للتاريخ الجديد، حيث دعوا إلى الاهتمام بتاريخ البشر بدلا من معرفة جزء من تاريخ الملوك وبالتالي تجاوز الرؤية الانفرادية للتاريخ والتركيز على دمج تغيرات السكان والاقتصاد والأخلاق والقوانين (طحطح، 2012، ص 72).

اتخذ التاريخ أبعاد علمية هامة وانتسب إليه علماء تخصصات أخرى لإحساسهم الفعلي بأهمية دراسة التاريخ في تطور العلوم الأخرى فنذكر مثلا فولتير 1778، وعلماء رياضيات مثل كوندرسيه 1794 (عبد الحميد، 2008، ص 27)

عمل مؤرخو المدرسة المنهجية للتاريخ في القرن 19 على منح صفة العلم للتاريخ باعتبار انه لا يتم إلا بالوثائق، ولقد دافعت هذه المدرسة عن تاريخ أكثر موضوعية، وعارضت التيارات الأدبية الرومانسية وكاثوليكية كتابة التاريخ، وأكدت على الممارسة النقدية للوثائق، وأدخلت قواعد صارمة في التعامل مع الوثيقة، فكل مقولة لا بد من إثبات مصادرها، مجدت المدرسة المنهجية الوثيقة وقدستها إلى حد العبادة، كما بدا الاهتمام بالمحفوظات ودور الأرشيف وفي الميدان التاريخي الأكاديمي ظهرت أسماء مثل غابريال مونود، شارل لانغلوا، شارل سينوبوس، كاميل جوليان، وفوستيل ديكولينج (طحطح، 2012، ص 78).

يعتبر تأسيس فرنسا للمجلة التاريخية سنة 1876 من قبل أساتذة جامعيين بروتستانيين وأغلبهم معجبين بالتقنيات الألمانية اثر هزيمة 1870 ثورة منهجية في الدراسات التاريخية، وثمرة هذا الاتجاه كتاب سينيوبوس لشارل لانغلوا (العروي، 2005، ص 187)، ولقد تم تحديد دور المؤرخ في مراقبة صحة الأحداث بفضل مصادره الوثائقية، وتنتهي مهمته عندما يبين صحة المعلومات كما وضع المنهجيون القواعد التالية:

- البحث عن الوثائق وتصنيفها "التاريخ يصنع من وثائق، حيث لا وثائق لا تاريخ ".
- النقد الداخلي والخارجي للوثائق
- مرحلة التصنيف والترتيب المنهجي للمعلومات
- استخراج الحقائق التاريخية من المصادر (طحطح، 2012، ص ص 79- 80).

كما ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية عوامل تركت آثارها في اتجاهات الأبحاث التاريخية وهي:

- التقسيم الجديد للمستعمرات مما ترك أثرا سلبيا في عودة الاتجاه القومي في التاريخ لدى الأوروبيين.
- ظهور الماركسية كقوة جديدة ذات منهج فكري خاص.
- ظهور علوم جديدة كعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم الآثار وعلم النفس الاجتماعي وعلم الاقتصاد

وانفتاح أصحاب هذه العلوم على التاريخ (عبد الحميد، 2008، ص 30).

يعتبر تأسيس مدرسة حوليات التاريخ سنة 1929 من طرف الأستاذان لوسين فيفر ومارك بلوك عند تعيينهما في جامعة ستراسبورغ بعد استردادها من الألمان ثورة منهجية أخرى في التاريخ، وقد قامت حرب شعواء بين المؤرخين الملتفين حول المجلة التاريخية ومؤرخي الحوليات، كما كانت حرب علمية منهجية وسياسية قومية حيث ابرز فيفر اهتمامه بالقاعدة الاقتصادية وعلاقة التاريخ بالبيئة، ووضعت هذه المدرسة أول هدف لها هو تجاوز تحقيق النصوص باستثمار مفهوم الحضارة الذي أبدعه فولتير بتطعيم الدراسات التاريخية بانجازات علوم البيئة (العروي، 2005، ص 187).

وسعت هذه المدرسة في مفهوم الوثيقة وانتقدت المدرسة المنهجية واعتبرت تاريخها تقليديا يهتم بالأفراد وبالفئات العليا من المجتمع وبنخبة الملوك ورجال الدولة وبالحروب والثورات، فبرز التاريخ الاجتماعي والاقتصادي الذي يهتم بالكتل التي ظلت على هامش السلطة، أعطت مدرسة الحوليات الأهمية للمصادر الأخرى، فلم تقتصر على الوثائق

المكتوبة فقط بل تعدت إلى مصادر أخرى أثرية، فنية، مسكوكاتية، وعلى حد تعبير لوسيان فيفر كل شيء هو مصدر (طحطح، 2012، ص ص 87- 88).

تجاوزت سمعة مدرسة الحوليات حدود فرنسا فلها ممثلين من الهند إلى البرازيل ومن السنغال إلى تركيا مرورا باليونان وتونس، فمن خلالها أصبح التاريخ علما موضوعيا في مستوى باقي العلوم الإنسانية يهدف إلى رصد الثوابت وهذا إحياء لبرنامج كونت وسبنسر الوضعاني التطوري وأيضا تزكية لبرنامج برودل الذي جعل المدرسية الفرنسية رائدة (العروي، 2005، ص 189).